فيئس من نفسه وقال إنا ﷲ وإنا إليه راجعون فقال بعض من حوله إن من يطلب مثل الذى تطلب لا يبكى إذا نزل به هذا فقال أما واﷲ لست أبكى على نفسى ولكن أبكى على الحسين وآل الحسين إنه قد خرج إليكم اليوم أو أمس من مكة ثم التفت إلى محمد بن الأشعث فقال إن استطعت أن تبعث إلى الحسين على لسانى تأمره بالرجوع فافعل فبعث محمد بن الأشعث إلى الحسين يأمره بالرجوع فلم يصدق الرسول فى ذلك وقال كل ما حم الاله واقع قالوا ولما انتهى مسلم بن عقيل الى باب القصر إذا على بابه جماعة من الامراء من أبناء الصحابة ممن يعرفهم ويعرفونه ينتظرون أن يؤذن لهم على ابن زياد ومسلم مخضب بالدماء فى وجهه وثيابه وهو مثخن بالجراح وهو فى غاية العطش وإذا قلة من ماء بارد هنالك فأراد أن يتناولها ليشرب منها فقال له رجل من أولئك واﷲ لا تشرب منها حتى تشرب من الحميم فقال له ويلك يا ابن ناهلة أنت أولى بالحميم والخلود فى نار الجحيم منى ثم جلس فتساند إلى الحائط من التعب والكلال والعطش فبعث عمارة بن عقبة بن أبى معيط مولى له إلى داره فجاء بقلة عليها منديل ومعه قدح فجعل يفرغ له فى القدح ويعطيه فيشرب فلا يستطيع أن يسيغه من كثرة الدماء التى تعلو على الماء مرتين أو ثلاثا فلما شرب سقطت ثناياه مع الماء فقال الحمد ﷲ لقد كان بقى لى من الرزق المقسوم شربة ماء ثم ادخل على ابن زياد فلما وقف بين يديه لم يسلم عليه فقال له الحرسى ألا تسلم على الأمير فقال لا إن كان يريد قتلى فلا حاجة لى بالسلام عليه وإن لم يرد قتلى فسأسلم عليه كثيرا فأقبل ابن زياد عليه فقال أيه يا ابن عقيل أتيت الناس وأمرهم جميع وكلمتهم واحدة لتشتتهم وتفرق كلمتهم وتحمل بعضهم على قتل بعض قال كلا لست لذلك أتيت ولكن أهل المصر زعموا أن أباك قتل خيارهم وسفك دماءهم وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر فأتيناهم لنأمر بالعدل وندعو إلى حكم الكتاب قال وما أنت وذاك يا فاسق لم لا كنت تعمل بذلك فيهم إذ أنت بالمدينة تشرب الخمر فقال أنا أشرب الخمر واﷲ إن اﷲ ليعلم أنك غير صادق وأنك قلت بغير علم وأنت أحق بذلك منى فانى لست كما ذكرت وإن أولى بها منى من يلغ فى دماء المسلمين ولغا ويقتل النفس التى حرم اﷲ بغير نفس ويقتل على الغضب والظن وهو يلهو ويلعب كأنه لم يصنع شيئا فقال له ابن زياد يا فاسق إن نفسك تمنيك ما حال اﷲ دونك ودونه ولم يرك أهله قال فمن أهله يا ابن زياد قال أمير المؤمنين يزيد قال الحمد ﷲ على كل حال رضينا باﷲ حكما بيننا وبينكم قال كأنك تظن أن لكم فى الامر شيئا قال لا واﷲ ما هو بالظن ولكنه اليقين قال له قتلنى اﷲ إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد فى الاسلام من الناس قال أما إنك أحق من أحدث فى الاسلام ما لم يكن فيه